هجرة العلماء المغاربة إلى المجال المملوكي ودورها في تطور الحياة الفكرية من خلال كتب الوثائق المملوكية: صبح الأعشى مثالا.

The migration of ulama maghrébin to the Mamluk domain and its role in the development of intellectual life through Mamluk document books: Sobh al-Ashi is an example

الدكتورة نجاة الجويني

جامعة منوبة

Najet_jouini@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/05/03 تاريخ القبول للنشر: 2019/05/20

الملخص:

يهدف هذا المبحث إلى محاولة إبراز صنف محدّد من التحركات المجاليّة لبعض الفئات الإجتماعيّة خلال العصر الوسيط. وقد اخترنا تتبّع هجرة العلماء من المجال المغاربي نحو المجال المملوكي خلال العصر الوسيط وتحديدا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. وتناوُلنا لمسألة هذا الصنف من الهجرات البشريّة كان أساسا لمحاولة فهم ما يحدث في عالمنا المعاصر وتحديدا فهم أسباب وعوامل هجرة الأدمغة نحو البلدان المتقدّمة بعد أن تكبّدت دولهم الأصليّة عناء دراستهم وإعالتهم.

ولدراسة هذه المسألة اعتمدنا صنف محدّد من المصادر المملوكية وهي كُتب الوثائقّ، وتُعرف أيضا بكتب الدساتير، مثل كتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " لابن فضل الله

العمري. وقد احتوت هذه المصادر على معطيات متنوعة حول هذا الصنف من الهجرة، وذكرت أسماء العديد من العلماء المغاربة الذين استقرّوا بالمجال المملوكي، وبيّنت وجود عائلات علميّة مغاربيّة قد استقرّت بشكل نهائيّا بالمجال المملوكي وكذلك وجود أجيال من هؤلاء المهاجرين. كما بيّنت هذه المصادر أنّ هذا الصنف من الهجرات لم يكن اختياريّا بل كانت هجرة اضطراريّة أو ربّما حتميّة. كما سنحاول في هذه الورقة تتبّع مسار هؤلاء المهاجرين وتقديم منتجاتهم الفكرية ودراسة مختلف التأثيرات الثقافيّة والمعمارية.

الكلمات المفاتيح: عُلماء، هجرة، مسألة الحدود، كُتب الوثائق، المجال المغاربي، المجال المملوكي.

Résumé :

La question de la migration et la mobilité des individus, et même des peuples, est une question très ancienne et qui durait jusqu'aujourd'hui, dans cet article, on s'intéresse à la migration d' une catégorie des intellectuels au moyen âge et précisément au XIII eme et XIV eme siècle c'est celle des – 'Ulamà – de l' espace maghrébin - l'Andalou, le Maroc, l' Algérie, et la Tunisie – vers l'espace mamelouk – la Syrie et l'Egypte. Ce type de migration a été cité dans plusieurs types des écrits mameloukes tel que les sources biographiques, les sources littéraires, mais surtout dans les manuelles de la chancellerie ou appelé aussi les sources documentaires. Dans ce dernier type des écrits officiaux, les auteurs nous présentent des informations intenses sur la migration des intellectuels des pays du Maghreb vers l'état mamelouke et il y a parmi ces migrateurs ceux qui sont installés définitivement dans la ville de Caire ; Damas, Halep ; et dans d'autre ville. Ces écrits nous citent aussi des familles – par exemple, la famille de saied annas -, ainsi que de génération, une deuxième génération .

La question qui se pose, pourquoi cette migration vers l'espace mamelouk ? quel faveur présenté par le pouvoir memelouke pour qu'ils restent sous leur protection et acceptent leur autorité ? et qu' elles sont les influences de ce type de migration ? sachant bien que cette migration se contenue dans l'espace et dans le temps, mais sous une nouvelle appellation c'est la migration des cerveaux.

Mots clé : ‘ulamà, migration, frontière, les manuelles de la chancellerie, espace maghrébin, espace mamelouk.

مقدمة:

تعتبر ظاهرة الهجرة ظاهرة قديمة، تعود جذورها إلى بروز الجنس البشري على سطح الأرض، وقد بيّنت المصادر، الصامتة منها والمكتوبة، أنّ استقرار هذا العنصر البشري، كان حول مصادر المياه، وعلى إثر اكتشاف الزراعة، حيث برزت أولى الحضارات الإنسانية. وقد بقي هذا الاستقرار نسبيّا، حيث تواصلت الحركات المجالية للإنسان، إمّا بصفة فردية أو جماعية، إلى العصر الحالي، ولعلّ هجرة الأدمغة والهجرة العماليّة بطرق شرعيّة وغير شرعيّة نحو الدول المتقدّمة أبرز دليل على ذلك .

وخلال الفترة الوسيطة، تكثّفت ظاهرة الهجرة، وقد شهد المجال المتوسّطي عامة والمغاربي خاصة، حركية مجالية بشرية هامة، وُجد صداها في عدّة أصناف من المصادر، لاسيما الوثائقيّة[1] منها، حيث بيّنت، بعض أصناف الهجرة، سواء منها الوافدة أو المغادرة، كما بيّنت أيضا المجالات الجغرافية الجاذبة أو المستقطبة للمهاجرين الوافدين، وتناولت أيضا العديد من الدراسات الحديثة والمعاصرة هذه الظاهرة[2]، ويمكن أن تتنزّل هجرة العلماء في هذا الإطار.

لقد كانت هجرة العلماء من الأندلس، في اتجاه إفريقية ثمّ المشرق الإسلامي، أولا لأداء فريضة الحجّ، ثمّ إلى مصر، خلال العهد المملوكي، وكذلك من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وإفريقية نحو المجال المملوكي أساسا، وتحديدا نحو بلاد الشام ومصر. فلماذا هذه الوجهة بالذات؟ وهل لا يكتمل النضج العلمي لهذا الصنف من المهاجرين إلاّ إذا ما توجّهوا إلى مصر واستقرّوا بها؟ أم أنّ ما تعيشه أوطانهم من تقلّبات سياسية

وتشدّد مذهبي جعلهم يفرّون؟ وهل كانت هجرتهم اختيارية أم اضطرارية؟ ثمّ كيف كانت نظرة العلماء المحلّيون لهؤلاء الوافدين؟ وما مدى تأثيرهم على الحياة الفكرية بالدولة المملوكية؟

لإنجاز هذا المقال اعتمدنا نماذج من كتب الوثائق المملوكية، مثل "**التعريف بالمصطلح الشريف**" لابن فضل الله العمري، و"**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**" للقلقشندي، و"**المقصد الرفيع المنشأ الهادي المعروف بديوان الإنشاء**" للخالدي، وهي مصنفات اعتبر أصحابها من علماء الدولة المملوكية، بالإضافة إلى بعض كتب التراجم، مثل "**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**"، لابن حجر العسقلاني، وكذلك الكتب الإخبارية، إلى جانب مجموعة من الدراسات التي تناولت تاريخ الدولة المملوكية من جوانب عديدة.

ولوضع هذا الصنف من الهجرات في إطاره المناسب ارتأينا ضرورة التعرض إلى عدّة مسائل منها الإطار التاريخي العام للمنطقة المتوسطية خلال منتصف القرن السابع هجري/منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، كذلك مسألة الحدود التي طُرحت بشدة في العهد المملوكي، ثمّ التعرّف على مفهوم "العلماء" من خلال كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، والتعرّف كذلك على أهم تأثيرات هذا الصنف من الهجرات على الحياة الفكرية بالمجال المملوكي.

I– الإطار التاريخي العام للمنطقة المتوسطية بداية من القرن 7هـ/13م، ومسألة الحدود.

1– الإطار التاريخي العام للمنطقة المتوسطية:

مثّلت الانقسامات السياسية والاختلافات الدينية إحدى أهم خاصيات العالم المتوسّطي خلال العصر الوسيط، فالعالم الإسلامي وإثر ضعف ثمّ انهيار كلّ من الخلافة

العباسية والخلافة الفاطمية والخلافة الأموية بالأندلس، وكذلك التجربة الموحّديّة، برزت به كيانات سياسية مستقلة عن بعضها البعض، مثل ملوك الطوائف في الأندلس، حيث انحصرت السلطة العربية الإسلامية في غرناطة إلى حدود سنة 898هـ/1492م، تاريخ سقوطها في إطار حركة الاسترداد المسيحي[3]. أمّا في المغرب الأقصى، فقد أسس بنو مرين الدولة المرينية سنة 615هـ/1236م وعاصمتها فاس والتي تواصلت إلى سنة 975هـ/1552م، تاريخ سقوطها على يدي الوطّاسيين، وفي المغرب الأوسط فقد تأسست دولة بني عبد الواد سنة 644هـ/ 1236م وتواصلت إلى سنة 952هـ/1545م، في حين نجح الحفصيون في تأسيس الدولة الحفصية بإفريقية التي تواصلت إلى سنة 982هـ/1574م. وقد اختلفت هذه الدول والإمارات من حيث المذاهب والفكر. أما الغرب المسيحي، فقد كان بدوره في مرحلة تفكّك وانقسام سياسي، لكنّه بدأ بالزحف على العالم الإسلامي في نطاق حركة الاسترداد المسيحي التي شنّها المسيحيون على المسلمين انطلاقا من شمال الأندلس، وكذلك الحروب المقدّسة التي سُمّيت فيما بعد بالحروب الصليبية[4]، والتي شنّها الفرنجة على بيت المقدس وعلى الساحل الشامي عامة، هذا بالإضافة إلى خطر آخر وُجد خلال تلك الفترة وهو الخطر التتري أو المغولي[5] الذي تحدّثت المصادر المملوكية عن تحالفهم مع المسيحيين في إطار الحروب الصليبية للقضاء على سلطنة المماليك، وربما على المسلمين عامة.

في هذا الإطار تأسّست الدولة المملوكية، والتي اعتبرتها عديد الدراسات الحديثة[6] تواصلا وامتدادا للدولة الأيوبية خاصة فيما يهم سياستها الخارجية. حيث تبنّى المماليك فكرة الجهاد وطرد الصليبيين من المجال الإسلامي، وكذلك الحدّ من زحف المغول على بلاد الشام خاصة والتقدّم نحو مصر. وأضاف المماليك الشرعية إلى سلطانهم باستقرار الخليفة العباسي بالقاهرة[7] بعد حرق التتر للعاصمة بغداد سنة 665هـ/1258م، واعترافه بسلطتهم وسلطانهم. بالإضافة إلى وجود عامل جغرافي هام والمتمثّل في موقع

مصر، فهي تتوسط العالم الإسلامي وخاصة طريق الحج كما تُعتبر أيضا ملتقى الطرق التجارية البرية والبحرية والتي تربط العالم الإسلامي بالغرب المسيحي.

2- مسألة الحدود:

تطرح ظاهرة الهجرة بالضرورة مسألة الحدود، وتحديدا الحدود الجغرافية، فنظريّا بيّنت كتب الوثائق أنّ مجال الدولة المملوكية يتمثّل أساسا في بلاد الشام بحصونها وثغورها ومصر ونسبيّا بلاد الحجاز أساسا مكة والمدينة، وبالتالي فكلّ من يفد على هذا المجال مسلما كان أو غير مسلم فإنّه يصنّف في نطاق الهجرة الوافدة لأنّه أجنبي على ذلك المجال الجغرافي، وبالتالي فهو سيمتثل إلى قوانين ومراسيم وحتّى عرف الحكم المملوكي. وعلى هذا الأساس تعامل سلاطين المماليك على الأقل الأوائل مع كلّ من حاول اختراق مجال سلطانهم، مثل الصليبيين والتتار، وغيرهم. وقد أوردت كتب الوثائق نصوص هُدن[8] وأيمان واتفاقيات[9] وكذلك نصوص مفاسخات، بيّنت كيف تعامل سلاطين المماليك مع هؤلاء الوافدين، إلى جانب قوة السيف والحروب. وهو ما يعني أنّ السلاطين المماليك فرضوا على الآخر الأجنبي احترام حدود سلطانهم ومجالهم[10]، وأكثر من ذلك أرادوا أن يعترف هذا الآخر بالحدود التي أقرّوها وكذلك بالمجال. وهو ما يحيلنا إلى التساؤل عن كيفيّة تعامل السلطة المملوكية مع صنف محدّد من الوافدين على مجالها وهم العلماء؟ وهل كان هناك اعتراف من قبل هؤلاء العلماء بالحدود الجغرافية، أم لا تزال سائدة في أذهانهم حدود المجال الإسلامي، أي الحدود بمفهومها الديني وهو مفهوم أوسع من السابق؟ ثمّ عن الدور الذي لعبه هؤلاء في الحياة الفكرية وكذلك في الثقافة الإسلامية خلال العصر الوسيط؟

II- المجالات الجغرافية التي يغادرها العلماء ومكانتهم في الدولة المملوكية.

1- مجال وفود العلماء على الدولة المملوكية:

المقصود بالمجالات الجغرافية، الدول التي يغادرها العلماء في اتجاه مصر المملوكية، والتي يمكن أن تكون مجالات طاردة أو منفّرة للعلماء وكذلك غير كافية لاكتمال نضجهم العلمي. وقد اختلفت العوامل المنفّرة للعلماء المغاربة بين الأندلس وبلاد المغرب. بالنسبة إلى الأندلس فقد مثّل الزحف المسيحي في إطار حركة الإسترداد أبرز العوامل التي دفعت بالعلماء إلى الفرار، بالإضافة إلى الإنقسام السياسي، أما بلاد المغرب فقد كانت الدولة المرابطية دولة سنية مالكية، إثر سقوطها سنة 541هـ/1146م، ظهرت الدولة الموحدية التي ارتكزت في دعوتها على مزيج من فكر المعتزلة والأشعرية والشيعة والسنة، وهو ما أدّى إلى ظهور مجموعات متضرّرة من الفقهاء والعلماء المعارضين والرافضين لهذه الأفكار. وإثر سقوط الدولة الموحّديّة، برزت كيانات مستقلّة عن بعضها البعض ببلاد المغرب، الأمر الذي قد يكون مكبلا لعديد المفكّرين، هذه الظروف جعلت العلماء يغادرون الأندلس وبلاد المغرب نحو المجال المملوكي.

تعتبر هجرة العلماء إلى مصر وبلاد الشام سابقة لقيام الدولة المملوكية، فخلال العهد الأيوبي مثلا، عمل صلاح الدين الأيوبي على إنشاء المدارس ودور الحديث في مصر والشام واستقدم علماء السنة والفقهاء للتدريس بها وخاصة لضرب المذهب الشيعي الموروث عن الفاطميين. وبرزت مدن ذاع صيتها آنذاك في العلوم الدينية مثل الإسكندرية والقاهرة وقوص وأسيوط في مصر، وبيت المقدس ودمشق وحلب وطرابلس في بلاد الشام، ومن بين من زار مصر خلال هذه الحقبة الأندلسي ابن جبير[11] وعلي بن موسى بن محمد بن سعيد، وقد كانت مصر آنذاك محطة يستريحون فيها عند ذهابهم إلى الحج وكذلك عند الرجوع منه.

ومع تأسيس الدولة المملوكية، وبداية تراجع إشعاع عواصم إسلامية ثقافيا وفكريا، مثل بغداد والقيروان وقرطبة، تصاعد صدى إشعاع القاهرة التي، ربّما يمكن القول، بأنها أصبحت العاصمة الفعلية للعالم الإسلامي، وأصبحت قطبا جاذبا للعلماء والمفكرين،

خاصة وأنها صارت معروفة من خلال روايات السابقين. وقد يكون لازدهار التجارة عبر الطرق البحرية والبرية دورا في هذا الإشعاع الثقافي لمصر عامة خلال العصر المملوكي وللقاهرة خاصة، كما كان لموقع مصر على طريق الحج دورا في هذا الإشعاع، أما في المجال الشامي فقد أصبحت مدنا مثل دمشق وحلب وحماه المصدرة للعلماء المسلمين إلى العاصمة القاهرة، التي أضحت مُلتقى العلماء المسلمين من مجالات عدّة.

وقد وفد على مصر المملوكية، علماء ورحّالة من الغرب المسيحي ومن بقية أرجاء العالم الإسلامي. فمثلا من أوروبا المسيحية وفد على مصر المملوكية رحّالة، ودوّنوا في رحلاتهم الكثير من الأخبار والمشاهدات عن البلاد وعن السكان وعن عاداتهم وتقاليدهم وطريقة لباسهم وطعامهم ودُورهم والمنشآت المعمارية المتنوعة كالكنائس والجوامع وغيرها. والكثير منهم يأتون عبر الطرق التجارية البحرية رفقة التجار البنادقة والجنويين وغيرهم.

أمّا ما يهمنا في هذه الورقة فهي أساسا هجرة علماء الأندلس والمغاربة عموما إلى مصر، وسنحاول إبراز هذه الهجرة من خلال ذكر بعض الأسماء في هذا الجدول[12]:

اسم العالم	مجال المغادرة	مجال الاستقرار
شرف الدين التيفاشي، ت. 651هـ/1253م.	من قرية تيفاش بجهة قفصة (تونس خلال العهد الحفصي)	مصر، ثمّ دمشق، من مؤلفاته" فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب" من صنف الموسوعات
ابن المقدسية (أبو بكر التميمي	من صفاقس بتونس	الإسكندرية، تولّى خطة قضاء

الصفاقسي)، ت. 654هـ/1256م		المالكية
بدر الدين الدشناوي التونسي، ت.703هـ/1303م	من تونس	دمشق
ابن سيد الناس التونسي، ت.705هـ/1305م	مولده الأندلس، انتقل صحبة والده إلى تونس.	الإسكندرية
بدر الدين التوزري، ت.705هـ/1305م	أصله من توزر، ومولده حلب (جيل ثاني)	درس في حمص الحديث وناب في القضاء، وتولى مشيخة الخانقاه[13]
فخر الدين التوزري، ت.713هـ/1313م	مولده بتوزر	رحل إلى الحج، ثمّ استقر بمصر، ودرس المالكية
شمس الدين بن جميل المالكي، ت.715هـ/1315م.	من تونس	دمشق، درّس النحو والفقه، ثم الإسكندرية، أين تولّى قضاء المالكية بها.
مجد الدين التونسي، الشافعي، ت.718هـ/1318م	من تونس	استقر أولا بالقاهرة، ثمّ انتقل إلى دمشق ودرس النحو

		بالمدرسة الناصرية.
ابن فيّرة الشاطبي، ت. 655هـ/1257م	من أصل أندلسي	ولد بمصر (جيل ثاني)
شرف الدين الأندلسي، ت.655هـ/1257م.	من مرسيّة	مصر، درّس النحو والحديث.
ابن سعيد المغربي، ت.678هـ/1274م. (رحالة)	م ن الأندلس	استقر بالإسكندرية، ثم القاهرة، ثم الشام، ثم عاد ليستقر في تونس، وفي سنة 666هـ/1269م، عاد في رحلة ثانية إلى المشرق واستقر في دمشق.
جمال الدين ابن الشريشي، ت 685هـ/1286م.	من الأندلس	انتقل إلى الإسكندرية ثم درس بالمدرسة الفاضلية، شرح ألفية ابن معطى، من تلاميذه ابن تيمية، والبرزلي، والقطب الحلبي.
ابن عصفور،	من إشبيليا	استقر بالقاهرة،

ت.699هـ/1299م.		ثم انتقل إلى دمشق.
ابن سعيد الأنصاري الأندلسي الجياني، ت.705هـ/1305م	من الأندلس	مصر
دلاّل الكتب، ت.726هـ/1325م، (محمد بن عيسى بن علي بن عيسى الصقلّي الصنهاجي الفاسي)	أندلسي الأصل	دمشق، أين درّس الحديث.
سعد الدين بن سيد الناس، ت.728هـ/1327م.	من أصل أندلسي، لكنه وُلد بمصر	مصر
فتح الدين ابن سيد الناس، ت.734هـ/1333م	من أصل أندلسي، مولده كان بمصر	مصر
أبو الحسن الشاذلي	من مدينة سبتة المغربية	توجه إلى الإسكندرية واستقر بها سنة 642هـ/1244م
أبو عبد الله الفاسي،	من مدينة فاس بالمغرب الأقصى	توجّه إلى مصر ودرس على عدّة

ت.656هـ/1258م		شيوخ بها، ثمّ انتقل إلى حلب واستقر بها ودرّس العربية والحديث.
جمال الدين أبو محمد الجزائري، ت.682هـ/1283م.	مولده بالمغرب الأقصى	رحل إلى مصر، وتولّى مشيخة النجيبية بها.
ابن سرور البربري، المغربي المالكي، ت.717هـ/1317م	من المغرب الأقصى	رحل إلى الإسكندرية، ثمّ إلى دمشق، أين درّس بالمدرسة الصلاحية ثمّ تولّى قضاء المالكية.
أبو عبد الله التلمساني، ت.656هـ/1258م.	من تلمسان	رحل إلى الإسكندرية واستقرّ بها.

هذا مختصر لبعض العلماء المغاربة الذين توجّهوا إلى المجال المملوكي واستقرّوا به وقد وُجدت عائلات مغاربة توارثت العلم وكذلك المناصب القضائية بالمجال المملوكي مثل عائلة سيّد الناس، بالإضافة إلى وجود جيل ثان من المهاجرين المغاربة وهم الذين وُلدوا في المجال المملوكي.

ما نلاحظه من خلال هذه التراجم، أنّ هجرة العلماء المغاربة كانت نسبيا هجرة اضطرارية، ولعلّ هجرة بن خلدون[14] واستقراره بالقاهرة تدخل في هذا الإطار، بسبب عدم الاستقرار السياسي، وكذلك الخلافات والاختلافات المذهبية بين السلطة والعلماء،

بالإضافة إلى الاختلافات الدينية التي كانت تعيشها المنطقة، خاصة الأندلس، وهي عوامل كانت تقيّد العلماء.

كما كانت مصر خلال العهد المملوكي مقصدا لعلماء بقية المشرق الإسلامي، من الحجاز مثلا، والعراق، ومن اليمن الرسولي، وكذلك لطالبي العلم، خاصة بعد أن أصبحت القاهرة وريثة بغداد من حيث خزنة الكتب، وكذلك كثرة مراكز العلم، بالإضافة إلى انعدام التشدّد المذهبي والفكري لدى السلاطين المماليك، وهو ما جعل المجال الجغرافي لهذه الدولة يكون مجالا مستقطبا ووجهة محبّذة للعلماء.

2-مكانة العلماء المغاربة في الدولة المملوكية:

خلال العصر المملوكي أصبحت القاهرة مركز الثقل الفكري، وذلك من خلال العدد الهائل من العلماء المحليين وكذلك نظرائهم الوافدين، لذلك سنتطرق إلى نظرة العلماء المحليين لهؤلاء الوافدين، من خلال كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي. من هو القلقشندي؟

هو القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد القلقشندي، ولد بقلقشندة إحدى القرى المصرية وهو من أصل عربي من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان، درس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر، وتخصص في الأدب وفي الفقه الشافعي وبرع في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، التحق للعمل في ديوان الإنشاء سنة 791هـ، خلال سلطنة الظاهر برقوق(784هـ-801هـ)، توفي 821هـ.

من هو العالم في نظر القلقشندي؟ وهل كان يعتبر الوافدين على مصر علماء؟

يصنف القلقشندي العلوم إلى سبعة أصول ومنها يتفرع أربعة وخمسون علما. ويرتّب هذه العلوم حسب أهميتها ومكانتها في الدولة المملوكية كالآتي:

1- علم الأدب ويبرز أنه يتفرع عنه 10 علوم، أولها علم اللغة ثم التصريف وآخرها علم قوانين القراءة.

2- العلوم الشرعية، والتي يتفرع عنها 9 علوم، أولها "علم النواميس" المتعلق بالنبوات وآخرها علم الفقه.

3- العلم الطبيعي، ويتفرع عنه 12 علما، أولها علم الطب وآخرها علم ضرب الرمل.

4- علم الهندسة، ويتفرع عنه 10 علوم، أولها علم عقود الأبنية وآخرها علم الآلات الروحانية.

5- علم التهيئة، ويتفرع عنه 5 علوم، أولها علم الزيجات[15] وآخرها علم الآلات الظلية.

6- علم العدد المعروف بالإرتماطيقي، ويتفرع عنه 5 علوم، أولها علم الحساب المفتوح، وآخرها علم حساب الدور والوصايا.

7- العلوم العملية، ويتفرع عنها 3 علوم وهي علم السياسة وعلم الأخلاق وعلم تدبير المنزل.

هذا التصنيف هو نظري، لأنّه بالنسبة للقلقشندي، من يتقن بعض الفروع من الأصلين الأول والثاني، فهو عالما، وبالتالي كل من وفد على مصر من الذين يتقنون الكتابة وحفظ القرآن والأحاديث والنحو والصرف ويقول الشعر ويكتب النثر فهو عالما. وهذا يعكس مدى انتشار العلوم النقلية في الحضارة الإسلامية بصفة عامة خلال العصر الوسيط.

وقد ذكر القلقشندي في كتابه، صبح الأعشى، أسماء العديد من العلماء، الذين وفدوا على مصر واستقروا بها، والذين أتوا في إطار أداء فريضة الحجّ، واستقروا بصورة عرضية في المجال المملوكي، وبيّن كيف كان لهؤلاء دورا هاما في ازدهار الحياة الفكرية والمعمارية في هذا المجال[16].

برزت هذه التأثيرات أساسا من خلال وجود المذاهب الأربعة بمصر المملوكية والتي يتمّ تدريسها في مدارس[17] أحيانا مع بعضها البعض، وأحيانا أخرى يُدرّس كل مذهب

لوحده في مدرسة خاصة به. وازدهرت بدورها المنشآت التعليمية، مثل الجوامع والمدارس، وقد أحصى لنا القلقشندي، حوالي 77 مدرسة في القاهرة، دون احتساب المدارس ببقية المدن المصرية مثل الإسكندرية ودمياط وأسيوط وقوص، و156 مدرسة بالمجال الشامي، وعادة ما تسمى هذه المدارس باسم من أمر بإنشائها، مثل المدرسة الظاهرية الأولى وهي نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس، الذي أمر ببنائها سنة 661هـ/1262م، وانتهت أشغالها سنة 662هـ، تمّ تدريس المذاهب الأربعة فيها والفقه والحديث والتفسير وتعليم القرآن. كذلك المدرسة المنصورية، نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون ودُرّس فيها أيضا المذاهب الأربعة. والمدرسة الصرغتمشية، أمر ببنائها الأمير صرغتمش سنة 756هـ، لكن كانت حكرا على الحنفية، لأنه تولّى مشيختها الأتقاني الحنفي الذي كان معاديا للشافعية والمالكية أساسا. كما احتوت هذه المدارس على مكتبات تزخر بالكتب النفيسة. وكان للجوامع أيضا دورا تعليميا فابن خلدون مثلا درّس الفقه المالكي بجامع الأزهر. وقد خصّص السلاطين المماليك أوقافا لهذه المنشآت التعليمية، ويكاد يختص العلماء المغاربة في تدريس المذهب المالكي وأحيانا الشافعي، كما تولّى العديد من العلماء المغاربة منصب القضاء وخاصة قضاء المالكية، وكذلك الإمامة، والإفتاء، والحسبة والمشائخ.

أمّا التأثيرات الأخرى فتتمثل أساسا في الكم الكبير من المصنفات في علوم مختلف والتي ميّزت العصر المملوكي، فبرز الحديث عن الدولة المملوكية في كتب الرحلة[18]، وكُتبت كُتب السيرة[19] التي خُصّ بها السلاطين المماليك، كما ظهرت مؤلفات في التاريخ، وفي الجغرافيا، وفي الأدب والشعر، وفنّ الترسّل، وفي الفقه، وغيرها من العلوم، وبرزت الموسوعات، مثل كتاب "نهاية الأرب" للنويري، و"النجوم الزاهرة"، لابن تغري بردي، و"صبح الأعشى" للقلقشندي، و" البداية والنهاية" لابن كثير، وكتاب " العبر" لابن خلدون، وغيرها من المؤلفات الأخرى. وقد اقتصر دور العلماء المغاربة في المجال المملوكي على تدريس المالكية، وأحيانا تولّي قضاءهم.

خاتمة:

قد تكون هجرة العلماء المغاربة إلى المجال المملوكي، هجرة اضطرارية أكثر منها هجرة اختياريّة لعدّة أسباب أبرزها:

– أولا: تميّز المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بوجود إمارات ودول متنافسة ومختلفة مذهبيّا وهو ما مثّل عائقا أمام حريّة الفكر والكتابة للعديد من العلماء، وتسبّب في خلق صدامات بين السلطة الحاكمة والنخب العلمية، وقد يجسّد ابن خلدون إحدى نماذج هذه الصدامات، ويجعلنا نشكّك في غرق السفينة التي كان على متنها أفراد عائلته؟

– ثانيا: تمكّن المماليك من كسب الإعتراف بهم من خلال رفع راية الجهاد ضدّ الصليبيين والمغول ونصرة الدين والمجال الإسلامي وخاصة الأماكن المقدسة الإسلامية، وعوّضت القاهرة، عاصمة السلطنة المملوكية، عواصم إسلامية مثل بغداد والقيروان، وأصبحت تمثل وجهة النضج والاكتمال الفكري والعلمي، وهو ما جعل من المجال المملوكي قبلة العلماء المسلمين عامة، ولكن دورهم في الدولة المملوكية كان محدودا جدّا، التدريس وأحيانا القضاء.

وأفرز هذا الصنف من الهجرات نتائج متعدّدة لعلّ أبرزها التأثيرات الحضارية والمعمارية التي وُجدت في الدولة المملوكية.

المصادر:

ابن بطوطة، ت. 779هـ/ 1378م، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، شرح طلال حرب، بيروت، د.ت.

ابن خلدون(عبد الرحمان)، توفّي 808هـ/ 1406م، المقدّمة، الدار التونسية للنشر 1984.

شافع بن علي (ناصر الدين بن عباس)، ت. 730هـ/ 1329م، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت 1998.

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت. 764هـ/ 1463، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، 2000، 29ج.

ابن عبد الظاهر (محي الدين)، ت 692هـ/ 1292م، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ط. 1.

العسقلاني(ابن حجر)، ت 852هـ/ 1448م:

-إنباء الغمر بأنباء العمر، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1969.

-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت 1993، 8 ج.

العمري (ابن فضل الله)، توفّي 749هـ/ 1348م، مسالك وممالك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، د.ت.

القلقشندي(أحمد بن علي)، توفّي 821هـ/ 1418م،"صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، تحقيق يوسف علي الطويل، بيروت، 1987، 14ج.

المقّري(أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت. ج.4.

المقريزي(تقي الدين) ت. 845هـ/ 1441م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.

ابن واصل (جمال الدين)، ت. 661هـ/ 1263م، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، 2004.

المراجع:

حطيط (أحمد)، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري (648- 923هـ/ 1250- 1517م)، بيروت، 2003.

حمزة (عبد اللطيف)، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأوّل، القاهرة، د. ت.

سرور(محمد جمال الدين)، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة، 1938.

الفقي (محمد كامل)، الأدب في العصر المملوكي، القاهرة،1976.

المراجع باللغة الفرنسية

Burlot (J), la civilisation islamique, hachette,2006.

Cahen (C), Orient et Occident au temps des croisades, aubier montaigne,1983.

Chapoutot Remadi (M),«une institution mal connue : le kalifat abbasside du Caire», les cahiers de Tunisie, n° 77- 78, T.20,1972,pp. 11-24.

Garcin(j.c.),un centre musulman de la haute Egypte médiéval, institut français d'archéologie orientale, Paris, 1976.

Mansouri (M. Tahar), « Les 'ulama en rupture avec le pouvoir d'après le Kitab al – mihan », in mélange de l'école française de Rome, t. 115, Rome, Paris, 2003, pp. 565-580.

Michaud (J.F), histoire des croisades, Paris 1970.

Sublet(j), madrassa : transmission du savoir dans le monde musulman, édition arguments, Paris, 1989.

[1]– كتب الوثائق، وتسمّى أيضا كتب الدساتير، وهي عبارة عن صنف من المصادر وُجد في الدولة المملوكيّة التي تأسست سنة 647هـ/1249م، وتواصلت إلى سنة 923هـ/1516–1517، والتي امتدت على مجال جغرافي شاسع تمثّل في مصر وبلاد الشام والحجاز، وهذا الصنف من المصادر كان نتاجا فكريّا لكُتّاب إنشاء عملوا في ديوان الإنشاء المملوكي سواء منه الديوان المركزي في القاهرة أو الدواوين الفرعية في النيابات الشامية خاصة، وهي عبارة عن دليل للمبتدئين في هذا الديوان، لكن هذا الصنف من المصادر كان ثريّا بعديد المعطيات الأخرى، التي يمكن أن تساعد الباحث. وقد كان منها الموسوعات، مثل كتاب "**صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**" للقلقشندي.

[2]- حطيط (أحمد)، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري (648– 923 هـ/ 1250– 1517م)، بيروت، 2003؛

Burlot (j.), La civilisation islamique, hachette, 2006.

[3]- المقّري(أحمد بن محمد)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت. ج.4، ص. 355- 356.

[4]-Cahen (c.), Orient et Occident au temps des croisades, aubier Michaud (J.F), *Histoire* des croisades, Paris 1970. ؛ montaigne 1983.

[5]. ابن عبد الظاهر(محي الدين)، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق، عبد العزيز الخويطر، الرياض 1970،

[6]. العريني الباز، **المماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.

[7]- Chapoutot Remadi (M.), «une institution mal connue :le kalifat abbasside du Caire», les cahiers de Tunisie, n° 77-78, T. 20. 1972, pp. 11-24

[8]. مثال: الهدنة التي عُقدت بين السلطان الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت سنة 667هـ/ 1269م. أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، 14ج.،

تحقيق يوسف عل الطويل، بيروت، 1987، نص الهدنة في ج. 14، ص. 43-44.

[9]- القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج. 14، ص. 30 – 33؛ ابن واصل (جمال الدين محمد)، **مفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت 2004.

[10]- مضمون كتب وردت إلى السلطان الظاهر بيبرس من عند مُقدّم الاسبتارية سنة 661هـ/ 1263م، وجواب السلطان عليها، ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار دولة بني أيّوب**، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، بيروت، 2004، ص. 414- 415.

[11]- نقل ابن عبد الظاهر عن ابن جبير من كتابه "الرحلة" ص 277، قال: " ... وتجّار النصارى أيضا يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب. ولا تُعترض الرعايا ولا التجّار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا..."، محي الدين بن عبد الظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق، عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1974، ص. 382-384.

[12]- العسقلاني (ابن حجر)، **إنباء الغمر بأنباء العمر**، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1969؛ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، بيروت، دار الجيل، 1993، 8 ج.؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، **الوافي بالوفيات**، 29 ج.، دار إحياء التراث العربي، 2000.

[13]- الخانقاه: هو مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة. أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.7، ص.376.

[14] - عبد الرحمان بن خلدون، توفي سنة 808 هـ، استقرّ في مصر وتحديدا في القاهرة المملوكية لمدّة تناهز ربع قرن، درّس المالكيّة بها كما تولّى القضاء وألّف كتابه الشهير " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" وقد قدّم ابن خلدون شهادة عن أهمية مصر العلمية في العالم الإسلامي آنذاك إذ يقول: «... واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة، ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أمّ العالم، وإيوان الإسلام،

وينبوع العلم والصنائع" ابن خلدون، المقدمة، 2ج، الدار التونسية للنشر، 1984، ج1، ص 278.

[15]– علم الزيجات أو الأزياج وهو من فروع علم الفلك وهي صناعة حسابية فيما يخصّ كل كوكب من طريق حركته ويُعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها.

أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج1. ص.538.

[16] Garcin(j.c),Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X-XVème siècle, Paris, 1995, t. 1. P.367-368.

[17]- Sublet(j), madrassa :transmission du savoir dans le monde mamelouke, édition arguments, Paris, 1989,p. 17.

[18]–ابن بطوطة ، **تحفة الأنظار في غرائب الأمصار**، شرح طلال حرب، بيروت، د.ت.

[19]–شافع بن علي (ناصر الدين ابن عباس)، **الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت 1998.